بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تثويرُ

بابِ «الاسْتعارة»

في رسالة «النُّكَـت» للرُّمَّانِي

بِقلَمْ

مَحمُود تَوفيق مُحمّد سَعد

[الحلقــة الأولى]

توطئة

اسلوب الاستعارة من الأساليب الأكثر حضورًا في البياني البشري كالتشبيه سواء كان بيان نفعيًا يتداوله عامة الناس أو كان بيان أبداعيًا شعرًا أو نثرًا أدبيًا.

والفرقُ بيت الاستعمالين ان استعمالة الاستعارة في بيان العامة النفعي مبني على التقليد دون إدراك وقصد لفاعلية هذا الاسلوب . جرى الناسُ فيه على ما اعتادوا سماعه من أسلافهم، بيْنا الاستعمال الأدبيّ شعرًا ونثرًا أدبيًّا ، فذلك استعمالٌ مبنيّ علَى عِرفان وقصدٍ وتصنُّع ،وهذا ما يجعله مناط عناية العقل البلاغي العربيّ والعقل النقديّ .

وإذا ما كان جمهرة البلاغيين على أن الاستعارة مبنية على «المبالغة في المشابهة» وأنّها ضربٌ من «المجاز» فإنَّ البُعد الوظيفيّ للاستعارة مفارقٌ البعد الوظيفيّ لكلٍّ من التَّشبيه ،والمجاز.

قُلتُ قبلُ إنّ «التشبيه» أسلوب تبيين وتقريبٍ وكشفٍ ، سبيلُه المناظرة بين الآشياء المتلاقية في بعضِ الصفاتِ والأحوال، وهذه المناظرة الكاشفة تستوجب حضور طرفي التشبيه تحقيقًا أو تقديرًا ، فملاحظة "المشبه" في الوعي في أسلوب

«التشبيه» وإن لم يكن " المشبه " منطوقًا به ، فإنَّ ذلِك الحضور في الوعي يفارقه عن «الاستعارة» ولذا كان كلَّما كانت رائحة التشبيه ملحوظةً في الاستعارة جعلتها استعارة رديئة، فجودة الاستعارة وظيفيًا في المفارقة بين المشابهة وبينها. وهذا أمر مقررٌ في أسفار البلاغيين والنقاد.(1)

وكذلك «الاستعارة» تفارق المجاز وظيفيًا : «المجاز» قائمٌ على النَّقل من وضعٍ إلى وضع ،وهذا النّقل ليس قائمًا على التَّخلي المطلق عن المنقول منه. ولذا سُمي «مجازًا» وهي تسمية تستحضِر في الوعي أن هنالك مجازًا منه ،ومجازًا إليه ، فالوعي ما يزال يلحظ المجاز منه، وهو مقبلٌ على المجار إليه ، وكذلك «التشبيه» اعتبار «المشبه » حاضرٌ في الملفوظ والملحوظ معًا أو في الملحوظ وحده.

«الاستعارة» قائمة على «الادعاء» وإلغاءِ الجنس الأوّل بالكلية، وإدخاله في جنس المقصود، فالأول قد فني من الوعي ،ولم يكن ملحوظًا

،ولا يلتفت إليه ، بتّة، بل إن أدنى شابة تشبيه تفسد الاستعارة ، لآن التشبيه فيه استدعاء للمشبه، وهذا ينقض دعوى اندراجه في الجنس المقصود وغيابه فيه ، فليس لدينا في الاستعارة عَالَمان ، نحن لدنيا عالمٌ واحدٌ ، تولَّد من امتزاج العَالَمين الّلذين غابا عَن الوعي وبقِي فيه العالَم الجديد الَّذِي ابدعته الاستعارة، وليس له وجود البتة خارج الصُّورة الاستعاريّة .

هكذا الأمر في عالم الإبداع الأدبي للاستعارة ، فهي قائمة على التَّخَيُّل المُغْرِق مِن قِبل الأديبِ المبدِع ، وعلَى إحداث التَّخْيِيل فِي المتلقّي ، بحيثُ يرَى ذلك العالم الجديد الَّذي صنعته الاستعارة، وليس له وجودٌ إلاّ في الصورة الاستعارية .

---

(1) يقولُ عبد القاهر:« اعلمْ أنَّ مِن شأنِ "الاستعارةِ" أنك كلما زِدْتَ إرادتَكَ التشبيهَ إخفاءَ، ازدادتِ الاستعارةُ حُسْناً، حتى إنَّك تَراها أغْرَبَ ما تكونُ إذا كان الكلامُ قد أُلِّف تأليفاً إن أردتَ أن تُفْصح فيه بالتشبيه، خرجْتَ إلى شيءٍ تعافه النفس ويلفظه المسع» [دلائل الأعجاز. تعليق شاكر. ص: ٤٥٠ فقرة:٥٣٢] .

يقُول شَيْخنا - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - « والاستِعارةُ من الفنونِ التي تشفّ عن طبيعة الشاعر وحسه،وكيف تستحيل الأشياء في وجدانه إلى حالة جديدةٍ ليستْ هِي الأحوالُ الأليفةُ التي تراها عيونُ الناسِ ... » ([٢])

ويقولُ:« الاسْتعارةُ - إذن – تشكلُ الأشياء تشكيلًا آخر، وتمحو طبائعها ، وتعطيها صِفات وأحوالًا أخرَى يُفرعها الشَاعرُ والأديب عليْها وفقًا لِحسّهِ وضروبِ انفعالاتِهِ وتصوراتِه... الاستعارةُ تنفضُ عن الأ شياء أوصَافها الأليفة ، وتفرغ عليها أوصافًا وجدانيّة ... »([٣])

و«الآستعارة» - عندي - أليقُ بالإبداع الأدبيّ من حيثُ بعدُها الوظيفي . فهي إلى خلق عالم جديدٍ ليس له وجودٌ في غيرِ الصورة الاستعارية، والخيال التي تعتمد خيالٌ إبداعيٌّ ليس همُّهُ الرئيسُ أن يبصر العلائق اللطيفة بين ما يتكلم فيه وما فارقها جنسًا ووجودًا وحضورًا وإلفًا ، فيكشفُ لك ما تجهلُه في ضوءِ ما تعرفُه ، وقد قلّ إلفُك به، وندر حضورُه في وعيك ، كما هو شأن الخيال في التشبيه. فيكون طرفا التّشبيهِ حقيقتين قائمتين تفارقُ أحداهما الأُخرَى في مستوَى الحضورِ وعيًا ،والألف مشاهدةً . فيقيمُ مؤانسةً في فؤادِك بيْن الأشياءِ.

والأمرُ في الاستعارةِ على غيرِه في بيان الوحي :

الاستعارة فيه ليست قائمة على تخيّلٌ من المُبين - تعالى اللهُ عَن ذِلك علوًا كبيرًا - ما يقوله الحقُّ ﷻ هو حقٌ لا تَخَيُّلَ فيه ، بلْ هو واقعٌ ، الله تعالى خالقه، ولذا كانت الاستعارة من قبلِ المُبين ﷻ حقٌ مبينٌ يعلمه ﷻ فهو خالقه، وهي تفعلُ في المُتلقّي المستبصر المتدبر تَخْييلَ ذلك الحق الذي غاب عنه،كأنَّه واقعٌ بيْن عينه. فهو مُخَيِّلَةٌ ما هو حقٌ ، غير مبنية على تَخيُّل المتكلم ما ليس هو بحقٍ ذلك فارقٌ جوهري بين الاستعارة في البيان البشري الإبداعي،والاستعارة في بيان الوحي قرآنًا وسُنةً .

---

[٢]) الإعجاز البلاغي .دراسة تحليلية لتراث أهلِ العلم. لشيْخنا - – مكتبة وهبة – القاهرة –(ط:١) عام ١٤٠٥هـ ص:١١٥

[٣]) التصوير البياني. دراسةٌ تحليلة لمسائل البيان. لشيْخنا. نشر مكتبة وهبة. (ط:٢) عام ١٤٠٠هـ ٠ ص:١٨٣

وهذا ما رواه سيدنا مسلم في كتاب«التوبة» من صَحيحه بسندِه عَنْ حَنْظَلَةَ الأُسَيِّدِىِّ ﵁ قَالَ - وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ - لَقِيَنِى أَبُو بَكْرٍ ﵁، فَقَالَ : كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ ؟ قَالَ : قُلْتُ : نَافَقَ حَنْظَلَةُ ، قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ !!! مَا تَقُولُ ؟ قَالَ :قُلْتُ : نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ **يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْىَ عَيْنٍ** ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ : فَنَسِينَا كَثِيرًا .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﵁ : فَوَاللَّهِ : إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا. فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قُلْتُ : نَافَقَ حَنْظَلَةُ ، يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:« وَمَا ذَاكَ ؟». قُلْتُ :يَا رَسُولَ اللَّهِ ،**نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْىَ عَيْنٍ** فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:« وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِى وَفِى الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلاَئِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِى طُرُقِكُمْ ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً ». ثَلاَثَ مَرَّاتٍ.

قول حنظلة ﵁ :« **يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْىَ عَيْنٍ** » دالٌ على بيان النبيّ ﷺ المصوّر الحقيقة التي عليها الجنة والنّار والتي يراها ﷺ هو الذي يجعل الصحابة يتخيلون هذا الحقّ الذي يخبرهم به الرسول ﷺ رَأْيَ عينٍ ، فهذا من الرسول ﷺ قولٌ حقٌ ، وهذا من الصحابَة تخيُلٌ لحقٍّ غابَ عَنهم ، فكان من النبي ﷺ أن نقله إليهم ، فإذا هم له مبصرون، ولذا نحن نُسمِّى هذا "تمثيلًا" و"تصويرًا" فرارًا من استعمال " التَّخييل" كيما لا تتوافد المعاني البشرية للتخيل الذي يمارسه الأديبُ المُبدعُ .

الاستعارة في بيان الوحي لا تقوم على تناسي التشبيه والادعاء، بل تقوم على تصيير الحق الذي يغيب عنك تصويرًا يجعلك إن كنت مُستبصرًا مُتدبرًا مليكًا للتذوّق النّفسِيّ والرُّوحِيّ مبصرًا بِبصرِك وبصيرةِ الحَقّ الّذِي غابَ عَنْك.

والناظر في صنيع البلاغيين والنقاد قبل " الرّماني" ومعه وبعده يرى عُظمهم يجعلُ «الاستعارة» من «البديع» بمفهومه الأوسع، لا بمفهومه في المدرسة السكاكية ([٤])

ولعل عبد الله بن المعتز العباسيّ (ت: ٢٩٦هـ) جعل الفنون الخمسة الرئيسة للبديع رأسها «الاستعارة» وكأنّي به لاحَظَ ما فيها مِن مَعنى الإبداع :« الابتكار»: الأعم من معنى" البديع" وأنت إذ تنظر في الخمسة الَّتي جعلها رأسي "البديع" في كتابه «البديع» :«الاستعارة» «التجنيس» «المطابقة» «ردالأعجاز على ما تقدمها » «المذهب الكلامي» ونظرت مستبصرًا متذوقًا شعر الحبيب أبي تمام ، رأيْت هذه الخمسة الأساليب هي العُمُدُ الَّتي يقوم عليها إبداعهُ، وأنت إذا لاحظت قوافيه رأيت القافية في غالب الأمر مَجْمَعَ أربعةٍ مِن هذِه الخمسة : رأيت «الاستعارة» «التجنيس» «المطابقة» «رد الأعجاز على ما تقدمها »قائمة في أغلب قوافيه ، ورأيْت بِنْيَةَ البيتِ غالبا قائمةُ على الأسلوبِ الخامس :«المذهب الكلامي» فهل كان الحبيبُ أبو تمام هي الذي استمدَّ منه ابن المعتز اختصاصَ هذه الخَمسة بمصطلح البَدِيع ، وما عداها في كتابه سماها «محسنات» ([٥])

---

[٤]) يقُول ابن رشيق القيرواني في كتابه العمدة":«الاستعارة أفضل المجاز، وأول أبواب البديع، وليس في حلي الشعر أعجب منها، وهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها، ونزلت موضعها،»" [العمدة في محاسن الشعر وآدابه. تاليف: ابي على الحسن بن رشيق القيرواني (ت: ٤٦٣ هـ) تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. نشر: دار الجيل. بيروت.(ط:٥) عام : ١٤٠١ هـ ج:١ص: ٢٦٨

[٥]) يقُول ابن المعتز من بعد أن فرغ من بيان الأبوب الخمسة التي سماها " البديع":«**قد قدمنا أبواب البديع الخمسة وكمل عندنا وكأنى بالمعاند المغرم بالاعتراض على الفضائل قد قال البديع أكثر من هذا وقال البديع باب أو بابان من الفنون الخمسة التي قدمناها فيقل من يحكم عليه لأن البديع اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم فأما العلماء باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ما هو وما جمع فنون البديع ولا سبقني إليه أحد وألفته سنة أربع وسبعين ومائتين وأول من نسخه مني علي بن هرون بن يحيى بن أبي المنصور المنجم**

ونحن الآن نذكر بعض محاسن الكلام والشعر ومحاسنها كثيرة لا ينبغي للعالم أن يدعى الإحاطة بها حتى يتبرأ من شذوذ بعضها عن علمه وذكره وأحببنا لذلك أن تكثر فوائد كتابنا للمتأدبين ويعلم الناظر أنا اقتصرنا بالبديع على الفنون الخمسة اختباراً من غير جهل بمحاسن الكلام ولا ضيق في المعرفة فمن أحب أن يقتدي بنا ويقتصر بالبديع على تلك الخمسة فليفعل ومن أضاف من هذه المحاسن أو غيرها شيئاً إلى البديع ولم يأت غير رأينا فله اختياره. »[البديع لابن المعتز- تحقيق المستشرق /اغناطيوس كراتشقوفسكي. نشر: دار المسيرة- بيروت –(ط:٣)عام ١٤٠٢هـ ص: ٥٧-٥٨]

وممّا يلاحظ عليْه أنَّه ذهب إلى أنّ أسلوب «المذهب الكلامِيَّ» لم يجد منه في القرآن شيْئًا ؛ لأنّه في تصورِه قائم على التّكلّف ، والقرآن منزَّهٌ عن ذلك، فكيف يكون قائمًا على " التكلف" ويعده من أساليب البديع الخمسة. وكيف يمثل هو للمذهب الكلامي بشيءٍ من شعره في كتابِه ؟

****

إذا ما نظرنا في صنيع " الرماني" في باب "الاستعارة" واستحضرنا أنه يجعلها من عمد الإعجاز البلاغي فيه، فإن علينا ،ونحن نتلقّى هذه الاستعارات التي يعرضُ لها ألا ننسى أن القرآن كلمةُ الله تعالى، وأنَّ ما يمكن أن نقوله في تلقيها وتحليلها وهي في البيان البشرى ، لا يليقُ بتّة أن نترخص ، فنقول به كلّه في تلقّي الاستعارات في القرآن وتحليلها ، وأنا إنما أتسامح عجزًا في استعمال مصطلح "الاستعارة" في هذا الأسلوب القرآني، لأني عاجزٌ عن أن آتِيَ بمصطلح يقُوم مقامه

****

صَنيع الرّمّانيّ في مدارسته" الاستعارة" على "شَريجين:

الأول يقوم بالنظر النظري في هذا "الأسلوب"

والآخر يقوم بالتذوق والتدبر لصور من "الاستعارة" في القرآن تتجلّى فيها معالم الإعجاز البلاغي للقرآن

الشّريج الأول

[مناطات نظر الرُّمّانيّ في أسلوب الاستعارة]

عني الرُّماني بالنظر في أسلوب "الاستعارة" بأمور سِتة :

1) بيان مفهومها
2) بيان الفرق بينها وبين التشبيه.
3) بيان أركانها
4) بيان الحقيقة التي تكون لها وتنقل عنها -
5) بيان الغرضِ منها
6) تذوق صورها

المحاور الخمسة ألأولى تمثل رؤيته العلمية البلاغية للاستعارة،وهي القائمة بالشريج الأول(البعد النظري)

والمحور الأخير السادس يمثل تبصره وتذوقه البلاغي لصور من استعارات القرآن

[المحور الأوّل: بيان مفهومها]

يسْتفتحُ"الرُّمانِيُّ" القولَ في هذا الباب بتعريف هذا الأسْلوب قائلًا: «الاستعارةُ تعليقُ العبارةِ علىَ غيرِ ما وضعَت لَه في أصْلِ اللغة علَى جهةِ النّقل للإبانة. »

أقام التعريف من ثلاثة أجزاء:

1) تعليقُ العبارةِ علىَ غيرِ ما وضعَت لَه في أصْلِ اللغة
2) علَى جهةِ النقل
3) للإبانة.

[تَنْويرُ الجزءِ الأوّل من التعريفِ]

قوله :« تعليقُ العبارةِ علىَ غيرِ ما وضعَت لَه في أصْلِ اللغة» يريد به استعمال العبارة في غير المعنى الذي وضعت له في أصل اللغة. ([٦])

وهذا يعني أن كلَّ كلمة «عبارة»وضعتْ وضعًا شَخصيًّا إزاء معنًى متعيّن إذا نطق بها الِّلسان في سياقٍ حضر ذلك المعنى المتعين في الفؤاد حضور تلازم عند من يكون عالِما بأصلِ الوضع.

وأهلُ العلم يسمون استعمال اللفظ في المعنى المتعين الذي وضعت له الكلمة وضعًا شَخصيًا «استعمالا حقيقيًا» . وهذا يعني أن كل كلمة لها معنًى حقيقي أو حقيقة قصدية. فليست كلمةٌ جرت في لسان العربِ الأول إلا ولها معنًى متعين حقيقيّ

والمعنى المتعين هو الذي يخلقُ أوّلًا ثم تصطفى له الكلمة المقتدرة على الدلالة عليه بكل مكوناتها الصوتية،ونمطها التركيبي ، وإيقاعها الصوني. فالكلمة التي توضع بإزاء معنى متعين لا توضع اعتباطًا ، فهذا "بيانٌ" هو من أجل النعم الربانية الرحمانية التي امتن الله تعالى بها على الإنسان ،وصرح بذلك في سورة" الرحمن" فلو كانتْ الكلمة التي توضع بإزاء المعنى المتعين المخلوق والمصنوع في الفؤاد قبلها إنما وضعت إزاه اعتباطًا ، لما كان هذا من عليّ النّعمةِ التي يُمتَن بها . ولَمَا كان لهذه الكلمة التي علمها الله ﷻ أبنَا «آدم» عليه السلام أن تسمّى «اسماء» ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:٣١] فهذا دالٌ دلالة بيّنة على أنها سمةٌ دالة على معنى متعين،ولا تكونُ السمةُ اعتباطًا، بلْ لا بد أن تكون لها علاقةٌ بما هِي سِمة له. ([٧])

[٦]) جاء في غير رسالة " النكت" أن الرماني عرف الاستعارة بقوله « قال أبو الحسن الرماني: الاستعارة استعمال العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة، وذكر قول الحجاج " إني أرى رءوساً قد أينعت وحان قطافها ".» (المعمدة لابن رشيق (م.س) ج:١ص: ٢٧١]

[٧]) أذهب إلى أن أصل كلمة«اسم»: «وسم» قلبت الواو همزة فوزن كلمة «أسماء»:" فعلاء" وتسمية الفتاة:«أسماء» أصله «وسْماء»ايْ حسناء

قلتُ هذا- وإن كان على غير ما يذهب إليه عبد القاهرِ في كتابه "دلائل الإعجاز – لأني أذهب إلى عظيمِ أهمية العرفان بالمعنى الوضعب الذي وضعت الكلمة بإزائه وجعلت دالة عليه بمادتها وصيغتها،وإيقاعها ، فإذا جاء الاستعمالُ وعلقها على غير هذا المعنى، فإنه لا يُمكن أن يعلقها على أي معنًى بل لا بد أن تكون هنالك أسباي اعتلاق بين المعنى الوضعي والمعنى الاستعمالي، فلدينا وضعيْن: وضع شخصيّ متعين ثابتٌ لا يتحول، ووضع استعماليّ متحول ، وفق مساقات القول ومقاصده.

هذه حقيقة لا أرى أن أحدًا يمكن أن ينقضها وإلّا لكان للوضع الاستعمالي أن يعلق أي كلمة بأي معنى غير الذي وضعت إزاءه وضعًا متعيًا شخصيًا، وهذا لا يُمكن لعاقل أن يقول به.

لهذا أوكد أن استعمال الكلمة في معناها المتعين الذي وضعت بإزائه وضعًا شخصيًا لابدَّ من أن يكونَ معناها هذا متوفقًا مع حال الكلمة نفسها مادة وصيغة وإيقاعًا، ثم يكونُ متوافقًا وأنيسًا مع المعاني المتعينة التي وضعت لها الكلمات الأخر التي تشاركها في بنية القول الذي تتحقق به الفائدة الإخبارية. وأن يكون ذلك مُنضبطًا بالقصد الَّذي يُرْمَى بالكلام لتحقيقه ، فلدينا نسق تركيبيّ «سياق مقالي» ولدينا «مقصدٌ إخباريٌّ» وَلابُدّ أن يكونّ المتكلّمُ ذا عرفان بذلك كيما تتحقّق الفائدة من قولِه.

واستعمال الكلمة في غير هذا المعني المتعيّن الذي وضعتْ له ، لا يُمكن أن يكونَ - أيْضًا - مطلقًا غير منضبطٍ بضوابطَ ، وإلَّا بطلت اللغة وظيفيًا.

فهذا التَّعليقُ الذي جعله الرُّمَّانِي طليعة التّعريف ، وإن كان كلمة، فإنّه دالٌ على أمورٍ غير قليلة تستوجبٌ عرفانًا عريضًا عميقًا بحال ما وضع له في الأصل ، وما علق عليه ، ويستوجبُ قصدًا واعيًا وبصرًا بما بين ما وضعتْ له العبارة في الأصل ، وما علقت عليه من وشائج ، وأسباب ومآنسة...

كلُّ ذلك عمليات عِرفانية محققة لا يُمكن أن يكون " التعليق" إلّا وليدَها.

وكأنِّي بالرُّمانِيِّ لم يصرح بهذه الضوابط لأنَّه يرَى العرفان بها واستحضارها والالتزام بها أمرًا بدهيًا - في زمانه - لا يكون النَّاظر في أسلوبِ "الاستعارة" ولا

سيما الاستعارة في القرآن بِحاجة إلى يصرح له بذكرها، فإنَّ ما حضر جَنانًا يُستَغنَى عن النَّصّ عليه لسانًا في معهود العربِ فهمًا وإفهامًا .

ذلك ما يوجبه حسن الظّنّ بمثل أبي الحسن الرّمّانيّ

فالعبارة لا تعلَّق على أيّ شيْءٍ غير ما وضعت له في أصلِ اللّغة ، فهذا لا يقُوله مَن فيه ذرة من عقلٍ . لا بُدَّ أن تكونَ هنالِك وشيجةٌ ، وهِي ما يسمِّيها البلاغيون «العلاقة» بيْن ما وضعتْ له العِبارةُ في أصلِ اللغة، وماعلقتْ عليه من غيرها.

[تثوير الجزء الثاني من التعريف]

قوله :«على جهة النقل» أمرٌ محوري مركزي للمفارقة بين "الاستعارة" خاصة، والمجاز عامة وما هو مستعملٌ على سبيل التشبيه .

ليس في التشبيه نقلٌ ، لا نقل لفظٍ ولا نقلُ معنى.

الحقيقتان حاضرتان بألفاظهما التي وضعت لكلٍّ وضعًا شخصيًا متعينًا .

فكلمة " النقل " هنا فارقة بين " المجاز" بكل ضروبه، ومنها الاستعارة، وماعداه.

وليس النقلُ في«الاستعارة» نقل ألفاظ خلاءً مما وضعتْ له إلى ما لم توضع له، بحث يهملُ ما وضعت له ويَفنى من الإدراكِ والوعي كَلَا . الأمرُ على غير ذلك ليس هو نقل تخلٍّ عن المنقول عنه اغتناء بالمنقولِ إليْه ، بل هو نقل تمازجٍ وتفاعلٍ بحيْث يمتزجان ، فيتولد منها ما ليس بموجود قبلُ ، فشأن الإبداع البشريّ إيجاد ما ليس بموجود ممّا هو موجود. فيكون عالمٌ جديد .

في "الاستعارة" يمزجُ المستعير ما هو موضوع له اللفظ وضعا شخصيًا بما هو غير موضوع له ، وله مناسبة بما وضع له ، ليتولد من مزجهما معنى جديد يوضع استعمالًا إزاءه لفظ ما هو موضوعٌ له أحدهما في الاستعارة التصريحية أو لفظ ما لم يوضع له في الاستعارة المكنية.

الاستعارة أسلوبُ خلقٍ وابتكارٍ وإبداع ،والإبداع كما قلت إيجاد ما ليس بموجود مما هو موجود ، فولك "رأيت أسدًا يخطب " لا يدل على رجل شجاع حقيقة،ولا على حيوان مفترس حقيقة ، بل على مخلوق آخر غير موجود خارج رؤيتك الشعرية وصورتها الاستعارية ، أنت برؤيتك وتصويرك ابتكرت وابدعت كائنا لم يكن موجودًا من موجودَين مزجت بعض الخصائص المتلاحظةِ من كلّ ببعضهما وابتكرت هذا الكائن الجديد الّذي أدركته برؤيتك الشعرية وصورته بهذه الصورة الاستعارية فأنت بالاستعارة مبتكرٌ خالقٌ مبدعٌ.

[تثوير الجزء الثالث من التعريف]

يتمثل هذا المحور في بيان الغرض من الاستعارة أداة من أدوات التأثير في المتلقّي من خلالِ ما تفعله في"المعنى" فقول الرُّمانيّ في آخر التعريف «**للإبانة**»أجمل الغرض منها في أمر" الإبانة"وهي كلمةٌ مكتنزة المعنى، بَسْطُها لا تتراءى شُطآنُهُ

يقول عبد القاهر عن فعلها في المعنى ومتلقيه :

« هي أمَدُّ ميدانًا، وأشدُّ افتنانًاا، وأكثر جريانًا، وأعجب حُسنًا وإحسانًا، وأوسعُ سعَةً وأبعد غَوْرًا، وأذهبُ نَجْدًا في الصِّناعة وغَوْراً، من أن تُجمعَ شُعَبها وشُعُوبها، وتُحصَر فنونها وضروبها، نعم،

وأسحَرُ سِحْراً، وأملأ بكلّ ما يملأ صَدْراً، ويُمتع عقلاً، ويُؤْنِس نفساً، ويوفر أُنْساً.

وأهدَى إلى أن تُهدِي إليك أبداً عَذَارَى قد تُخُيِّرَ لها الجمال، وعُنِيَ بها الكمال وأن تُخرج لك من بَحْرها جواهرَ إن باهَتْها الجواهرُ مَدَّت في الشرف والفضيلة باعاً لا يقصرُ، وأبدت من الأوصاف الجليلة محاسنَ لا تُنكَر، وردَّت تلك بصُفرة الخجل، ووَكَلتها إلى نِسْبتها من الحَجَر وأن تُثير من مَعْدِنها تِبْراً لم ترَ مثلَه، ثم تصوغ فيها صياغاتٍ تُعطِّل الحُلِيَّ، وتُريك الحَلْيَ الحقيقي .

وأن تأتيك على الجُملة بعقائل يأْنس إليها الدين والدنيا، وفضائل لها من الشرف الرُّتْبة العليا.

وهي أجلُّ من أن تأتيَ الصفةُ على حقيقة حالها، وتستوفيَ جملةَ جمالها،

ومن الفضيلة الجامعة فيها أنها تُبرز هذا البيان أبداً في صورة مُستجَدَّةٍ تزيد قَدرَه نُبْلاً، وتوجب له بعد الفضلِ فضلاً

وإنَّكَ لَتجِدُ اللفظة الواحدة قد اكتسبتَ بها فوائد حتى تراها مكرّرة في مواضعَ، ولها في كلّ واحد من تلك المواضع شأنٌ مفردٌ، وشرفٌ منفردٌ، وفضيلةٌ مرموقة، وخِلاَبَةٌ مومُوقة.

ومن خصائصها التي تُذكرَ بها، وهي عنوان مناقبها، أنَّها تُعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ، حتى تُخرجَ من الصدَفة الواحدة عِدّةً من الدُّرَر، وتَجْنِيَ من الغُصْن الواحد أنواعاً من الثَّمر.

وإذا تأمَّلتَ أقسام الصَّنعة التي بها يكون الكلام في حَدَّ البلاغة، ومعها يستحِق وصفَ البراعة، وجدتَها تفتقر إلى أن تُعيرها حُلاها، وتَقصُرُ عن أن تُنازعها مداها وصادفتها نجوماً هي بدرها، ورَوضاً هي زَهْرها، وعرائسَ ما لم تُعِرْها حَلْيها فهي عواطل، وكواعبَ ما لم تُحَسِّنها فليس لها في الحسن حظٌّ كامل، فإنك لترى بها الجمادَ حيّاً ناطقاً، والأعجمَ فصيحاً، والأجسامَ الخُرسَ مُبينةً، والمعاني الخفيّةَ باديةً جليّةً .

وإذا نظرتَ في أمر المقاييس وجدتَها ولا ناصر لها أعزُّ منها، ولا رَوْنَق لها ما لم تَزِنْها وتجدُ التشبيهات على الجملة غير مُعْجِبَةٍ ما لم تكُنْها.

إن شئت أرتك المعانيَ اللطيفةَ التي هي من خبايا العقل، كأنها قد جُسِّمت حتى رأتها العيون.

وإن شئتَ لطَّفتِ الأوصاف الجسمانية حتى تعود رُوحانية لا تنالها إلاّ الظنون.

وهذه إشارات وتلويحات في بدائعها، وإنما ينجلي الغرض منها ويَبين، إذا تُكُلِّم على هذه التفاصيل، وأُفرِدَ كُلُّ فن بالتمثيل» (٨)

---

٨) أسرار البلاغة. تألبف : أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (ت: ٤٧١هـ) قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر.الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة . ص(٤٢ – ٤٣)

هذا الذي صاغه عبد القاهر صِياغة هي الأنموذج الأمثل في وصف فاعلية" الاستعارة" ترى "الاستعرة" في صياغته متسمة بعظم الذي نصّ على اقتدارها على فعله في المعاني،وفي الفؤاد الرشيد السميع البصر المتلقيها.

إن شئت أن تتدارس هذا البيان من عبد القاهر عن فاعلية الاستعارة تكاثرت عليك المسائل ،وإن شئت أن ترى هذا الذي قاله في صورة من الصور الاستعارية التي تلاقَى عليها أعيان أئمة فقه البيان رأيت الأمر فوق طاقتك.

وكأني بعبد القاهر يرسم لنا معالم الطريق، ويشير إلى مواطن الحسن الخبيءَ لنخرجه ، مما يجعل علي فريضة علمية إذا ما كنت إزاء تلقي صورة استعارية إن في بيان بشري بديع،وإن في بيان وحي مُعجز أن استدرك فيها هذه الفرائد من الفوائد في هذه الاستعارة ، وأنْ أميز ما يعود إلى الفعل في المعنى، عما يعود إلى الفعلِ في متلقيه. وهذا يقيم من قام إلى تلقّي صورة استعارية بالشعور المهيمن بالعجز عن الإحاطة ،لإأني له أن يأتي بشَيْءٍ مثلها.

ويمكنك أن تذهب إلى أن عظم الذي قاله عبد القاهر على جلاله هو منْدرِجٌ في الكلمة التي قالها الرماني في ختام تعريفه الاستعارة ، فألقى بها في فؤادك الرشيد لتتكاثر فيه بتبصرك وتدبرك،وتذوقك.

وحفظ عبارة عبد القاهر المبسوطة على جلاله أجل منه أن تراه قائما في صورة استعارية. فالرؤية البلاغية العلمية للأسلوب إنما تزكينها وتذكيتها أن ترى في واقع الأسلوب البليغ.

اعتقال الحقيقة العلمية في عقلِك يحقّقً لها حفظَها المسْتحْجرَ ، بيْنما إطلاقُها في رياض الأسلوب البليغ استبصارًا وتدبرًا وتذوّقًا هو الذي يجعل منها الحقيقةَ الودود الولود.

[المحور الثاني من محاوز نظر الرّمّانيّ في " الاستعارة"]

(بيان الفرق بين الاستعارة والتشبيه)

يذهب" الرُّمانيُّ" إلى أنّ « **الفرق بيْن الاستعارةِ والتَّشبيهِ أنَّ - ما كان من التشبيه - بأداة التّشبيه في الكلام فهو على أصلِه لمْ يُغير عنه في الاستعمال ، وليس كذلك استعارة؛ لأنَّ مخرجَ الاستعارةِ مخرجُ ما العبارة ليست له في أصل اللغة.** »

في هذا النصّ تقريرٌ من "الرّمّاني" أن المفارقة الجوهرية بين الاستعارة والتشبيه متمثلةٌ في ما يفعله التشبيه وما تفعله الاستعارة في طرفي كلٍّ منهما:

التشبيه يستبقي كلّا منْ طرفيه على حاله ، لا يُحدثُ فيه تغييرًا. قولك "كلامه كالعسل" لم تحدث في معنى قولك " كلامه" ولا في معنى قولك " العسل" أي تغيير، كلّ كلمة من الطرفين محتفظة بمعناه .

كلُّ ما هنالك أنك كشفت عمّا بين تأثير كلامِه في النفسِ،وتأثير العسل في النفس من مشابهة ، فمناط النّظر ليس في معنى كلمة" الكلام" ومعنى كلمة " العسل" . كـلّا . مناط القصد إلى تأثير كلٍّ منهما فيمن يتلقاهما. فالمعاني قارة على حالها في طريفي التَّشبيه.

أمَّا الاستعارةُ في قولك :" سمعت أسدًا ينشدُ شعرًا " فقد أخرجت كلمة "الأسد" عن المعنى الَّذي وضعت له في أصل اللغة إلى معنى آخر لم توضع له ، إنّما هو معنى استولدته بِرؤيتك الشّعرية للمنشد شعرًا، ليس لهذا المعنى وجود خارج رؤيتك الشّعرية للمنشد شعرًا .

ذلك هو الفارقُ الجَوهَري بيْن" التّشبيه"و"الاستعارة" وهو فارقٌ لا يتمثّل في عُنصر لفظيّ حضورًا وغيابًا.

الفرق متمثلٌ في ألا تكون أثارة من المشابهة حاضرةً في الوعي إبداعًا أو تلقيًا، فكلّما بعدت الشقة عن لمح المشابهة كلما كانت المفارقة والمفاصلة بالغة القوة.

فحيثُ أمكن ملاحظة أدنى أثارة من المشابهة كان الأسلوب أبعد ما يكونُ عن "الاستعارة" .

وعدم ملاحظة هذا الفرق الجوهري جعل بعضَ أهلِ النَّظر يعد ما هو من التّشبيه استعارة ، فقول بعض أهلِ النظر على بعض صور "الاستعارة " تشبيهًا على سبيل التّجوز أو التَّوسُّع ليس قولًا محررًا.

وكذلك تجدُ بعضهم يطلق عنى بعضِ صًورالمجاز المرسل استعارة .

وعبد القاهر يذهب إلى أن بعض أهل العلم يتجوز ويتسامح في استعمال المصطلحات حين يكون في سياق الشّرح والتحليل، بينما هو المحررُ قوله في سياق بيان الفروق. ([٩])

وعلى هذا حين تقرأ قول الرّماني بعدُ « **وكل استعارة بليغة فهي جمع بين شيئين بمعنى مشترك بينهما يكسب بيان أحدهما بالآخر كالتشبيه ، إلّا أنَّه بنقل الكلمة والتشبيه بأداته الدالة عليه في اللغة** » أيْ الدالة عليه في اللغة ملفوظة أو ملحوظة، ذلك أن ما يلحظ بالجنان كمثل الذي يلفظ باللسان سواءً بسواء، فلا تحسبن أنّه يفرق بين الاستعارة والتشبيه بوجود الآداة في التشبيه ، فتظن أنه يجعل من قولك" محمد أسدٌ" من قبيل الاستعارة .

الرُّمّانيّ يجعل ما كان فيه نقلٌ هو من الاستعارة ، وما لم يكن، وكان فيه أثارة من مشابهة ، فهو تشبيه ، سواء ذكرت الأداة أو لم تذكر، فعدم ذكر الأداة مع وجود أثارة من التَّشبيه لايجعله من الاستعارة ، بل هو من التشبيه ، فقولنا : محمد أسد ، هو تشبيه عنده لا استعارة.

---

[٩]) أسرار البلاغة . تعليق شاكر. ص:٤٠١-٤٠٢(فقرة:٣٥٢)

[المحور الثالث : بيان أركانها]

لكلّ أسلوب أركانٌ يقُوم عليْها قد يُكتفَي بذكرها، وقد ينسل منها ما ليس بركن ، ولكنه ذو أثَرٍ فِي تشكيلِ المَعنى، فإن رغِب عنه تحقيقًا وتقديرًا لم يسقط المعنى ، بيْنا الركان إن رغب عن أيّ ولو تقديرًا سقطَ المعنى

فبعضُ مكونات الأُسلوب إذا لم يذكر ولم يلحظ ، سقط المعنى كلية، وبعضها إن رغب عنه تحقيقًا وتقديرًا لم يسقط أصلُ المعنى ، وإن تغير ، وربما ذهب رونقه.

وكثيرًا ما تجد صورةً تشبيهيَّةً قد مُدَّ نظمُ أحدِ طرفَيها :(المشبه أو المشبه به) دون الآخر قصدًا لملاحظة ما ذكر فيما لم يذكر، وتجدُ هذا وافرًا في التشبيه الدائري (الضّمني) عند الشعراء الهذليين.

والاستعارة لها أركان ثلاثة. يقولُ الرمانيّ :« وَكُلُّ اسْتعارَةٍ فلابُدَّ فِيها مِنْ أشْياءَ: "مستعارٌ" و"مُسْتَعارٌ لَه" و"مُسْتَعارٌ مِنْهُ" فالَّلفظُ المُستعار قَد نُقِلَ عَنْ أصلٍ إلَى فَرْعٍ لِلبَيانَ. »

في قولك : رأيتُ أسدًا يُنشِد شعرًا" المستعار هو لفظ"أسد" والمستعار منه " المعنى الوضعي التحقيقيّ لكلمة " أسد" والمستعار له" الرجلُ الشّجاع" قصدًا إلى تصوير من رأيت في صورة كائن جموعًا لخواصّ الأسد من الجُرأة والإقدام ولخواص الرجل من العقلِ والحكمةِ ، فأنت بإزاء كائنٍ ليس هو هو الأسد الذي يعرفُ الناسُ ، ولا هو هو الرجل الذي يعرفُ الناسُ، هو كائن جديد في رؤية المتكلم الشعرية ، لا تجده إلَّا في هذه الصورة الاستعارية التي تُبين عن رؤية المتكلم، فهي إبانة للمخاطب عن رؤية المتكلم لما يخاطبه فيه ، فلو كانت رؤيته للمنشد الشعر هذا كمثل رؤية من يُخاطبه لما كان مقتضٍ لأن يخبره بذلك. فكأنّ في هذا أثارةً من الإنباء بفراسة المتكلم في رؤية الأشياء على غير ما تتراءى للناس ، فهو الّذي يرى الأشياء على حقيقتها : على غير ما يراها الآخرون. وكأن فيه أيضًا دعوة إلى أعادة النظر والرؤية لمن ينشد على النحوِ الذي هو أليق به، ففي ذلك إنصافٌ له، .

[المِحْور الرَّابع : بيان الغرضِ منها]

تتنوَّع الآساليبُ بتنوّع الأغراضِ والمقاصد، وبتنوّع الوظائفِ الَّتي تؤديها الأساليبُ . والعربيةُ من بيْن اللغاتِ الأُخر هي أكثرها ألفاظًا، وأوسعها مذاهب إبانةٍ ، وهذا ينبئُ عن شأنِ النّاطقين بها، فهُم أوسعُ النَّاس رؤية وتفكيرًا وبصرًا بحقائق الأشياء ومآلاتها، فلما تكاثر هذا فيهم كان ذلك مستوجبًا لتكاصر مذاهبِ القول ومسالكه.

وهذا الذي امتاز به العربي الناطق بالعربية من اتساع رؤيته الحقائقِ وتكاثرها وتنوعها فبدا ذلك في لسانه جعله أهلًا لأن ينزل القرآن بلسانه ليتحمل مسؤولية التبليغ بعد سيّدنا رسُول الله ﷺ ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤)﴾[الزخرف]

*****

والأساليب ليست سواء في اغراض الإبانة بها، وفي وظائفها، ،وكذلك الغرض قد يكونُ له أكثر من أسلوبٍ يؤدي إليه، ولكنها لاتكون جميعًا سواء في تأدية الغرضِ فبينها تفاوت نوعيّ يمكن المبين من أن يختارَ الأسلوب الذي هو الآنس بحاله، وحال مخاطبه،وحال المعنى،وحال السياق المقامي الذي يكون فيه التخاطب.

و"الرّمّانيّ" ملتفت إلى تبيان الغرض الذي يُصطفى له أسلوب "الاستعارة" ، يقُول:« **وكلُّ استعارةٍ بليغةٍ فَهي جمعٌ بيْن شَيْئين بمعنى مشتركٍ بيْنهما يكسِب بيان أحدِهما بالآخر كالتَّشبيه ، إلّا أنَّه بنقل الكلمة والتَّشبيهُ بأداتُه الدَّالة عليه في اللغة.**

وكُلُّ استعارةٍ حسنةٍ فهي تُوجبُ بلاغةَ بيانٍ لا تنوب منابَه الحقيقة ، وذلك أنّه لو كان تقومُ مقامَه الحقيقة ، كانتْ أولَى به ، ولم تجز الاستعارة. »

استهلالُه القولَ بنعت الاستعارة بأنها " بليغة" يلفتك به إلى حقيقة الغرض الكُلي للبلاغة حين قال في طليعة رسالته" النكت: :«البلاغةُ إيصالُ المعنى إلَى الْقَلْبِ فِي أحسنِ صورةٍ من اللفظ» هذا "الإيصال" وما يترتبُ عليه من التَّمكُّن في الفؤاد الرشيد ، وفاعليته فيه وصولًا إلى تحقيق ما يراد من هذا الفؤاد الرَّشيد أن يكون منه ، هذا الإيصال هو "جُمْعة" الأغراض الَّتي يراد تحقيقها بالكلام البليغِ .

والرّمَّانِيّ يجعل الفرق بين الغرضِ من التشبيهِ والغرض من الاستعارة متمثّلًا في أداة التّحقيق .

الغرضُ عنده منها هو **"الجَمْعُ بيْن شيْئَينِ بمعنًى مُشْتركٍ بيْنهُما يَكسِب بيانَ أحدِهما بالآخر .** هذا ما يشترك فيه "التّشبيه" و"الاستعارة"، إلّا أنَّ "التَّشبيه" يفعلُ ذلك بأداةٍ وضعت لذلك ، بيْنا "الاستعارة" لم تفعلْ ذلك بأداةٍ، بلْ بتصرّفٍ مِن المُتكلّم ، يتمثّل فِي نقل الكلمةِ المُستعارة منْ معناها الّذي وضعت له، إلى معنى آخر لم توضع له ، و له بمعناه مناسبة . والكلمةُ المستعارةُ إذ تنقل عن معناها الذي وضعتْ له في أصل المعنى إلى معنى آخر لم توضع له إلا أن بينهما مناسبة، هي لا تتحلّي عن معناه الذي وضعت له تخليًا كليًا بحيث لا يبقى معها منه شيءٌ وقد نقلت عنه إلى غيره ([10]) ذلك أن هنالك علاقة وثقَى بين معناها الذي وضعت له ، وذاتها مادة وصيغة، وإيقاعًا ، ذلك أن وضعها ليس وضعًا عشوئيًا ، لا ينبئُ عن حكمة، وإلَّا لما اتن معنى لامتنان الله – تعالى - على الإنسان أن علمه البيان . وجعله قرن امتنانه عليه به بتعليمه القرآن ،هذا الاقتران في الامتنان دالٌ دلالة بينةً على أنَّ هذا البيان الذي علمه الله – تعالى - الإنسان إنّما عمود أمره الحكمة التي تقتضِي أن تكون هنالك علاقة ذاتية بيْن الكلمة مادةً وصيغةً وإيقاعًا ، والمعنى الذي وضعتْ بإزائه، فليس من الحكمة أن يُسمَّي ذكر الإنسان "رجلًا" وأن يسمى ذكر الخيل "حصانًا" دون مناسبة بحيث يسقيم أن يقال عن ذكر الإنسان "حصانًا" وعن ذكر الخيل "رجلًا"([11])

---

[10]) يذهبُ سيبويه في" الكتاب" إلى أن " الباء" الموضوعة للإلزاق ، قد تستعمل في غيره ، وهي إذ تستعملُ في غيره لا تتخلى عن معنى الإلصاق كلية،بل يبقى فيها شيْءٌ من هذا الإلصاق ، فهي إذا دلت على الظرفية في سياقٍ لا تكون خالصة له ،ولا تكون الظرفية التي فيها كالتي في«في» بل هي ظرفية فيها شيْءٌ من الإلزاق، وكذلك دلالتها على السببية، تكون سببية فيها شيْءٌ من الإلزاق.

[11]) بذهب ان جني ملهمًا في كتابه" الخصائص" إلى أنّ همالك تلاحظًا بين ترتيب حروف الكلمةِ ، أصواتها ، وما وضعت له الكلمة من معنى . وعقد لذلك بابًا سماه « إمساس الألفاظ أشباه المعاني:» يقُول فيه :« قد يضيفون إلى اختيار الحروف وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبَّر عنها بها ترتيبها وتقديم ما يضاهي أول الحدث وتأخير ما يضاهي آخره، وتوسيط ما يضاهي أوسطه ، سوقًا للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المطلوب. وذلك قولهم: بحث. فـ"الباء" لغلظها تشبه بصوتها خفقة الكف على الأرض، و"الحاء" لصحلها تشبه مخالب الأسد وبراثن الذئب ونحوهما إذا غارت في الأرض و"الثّاء" للنفث، والبث للتراب . وهذا أمر تراه محسوسًا محصلًا فأيّ شبهة تبقى بعده أم أيّ شك يعرض على مثله. وقد ذكرت هذا في موضع آخر من كتبي لأمرٍ دعا إليه هناك. فأمَّا هذا الموضع فإنه أهله، وحقيق به لأنَّه موضوع له ولأمثاله. »

وبَيِّنٌ أنه إذا ما تغيرت الطريقُ الموصلةُ للغرض فإنّه لا بّد أن يكون لهذا التنوع أثرٌ في الغرض، فلا يكون ما في الاستعارة هو هو ما في التشبيه، وإلَّا كان هذا من التَّفنّن العقيم ، والبيانُ البليغُ منزَّه عَن مثل هذا .

وعبد القاهر جعل عمدة أسرار بلاغةِ البيانِ يَتمثل في ما بيْن المعاني من اختلاف واتفاقٍ واجتماع وافتراق ، فليست البلاغة في أنْ يكون بين المعتني اجتماعٌ مطلقٌ محيطٌ ، وتطابقٌ كميلٌ، ولا بيْنها افتراقٌ وَتفاصلٌ شَسيعٌ ، فلا يلتقيان بتة، كلَّا بل يكونُ بين المعاني شيْءٌ من اختلاف ،وشيْءٌ من اتفاقٍ وشيْ من اجتماع وشيْءٌ من افتراق. فيها ما يؤانسها، وفيها ما يميزها.

فالغرضُ من "التّشبيه" والغرضُ من "الاستعارة" بينهما اجتماعٌ يتمثّل في« **الجمعُ بيْن شَيْئَيْنِ بمعنًى مُشتَركٍ بيْنهما يُكْسِبُ بيانَ أحدِهما بالآخرِ**» وبينهما افتراق يتمثل في أن معنى الطرفين في" التّشبيه" باقٍ على حالِه لا يَحُولُ إلى شيْءٍ آخر، بيْنا "الاستعارة" المعنى في الطّرفين يحدثُ فيهما شيْءٌ مِن الانتخاب ومزجِ بعضِ خصائصِ كلِّ طرفٍ ببعضِ خصائصِ الآخر، فَبتولّدُ من ذلك التَّمازجِ والتَّفاعلِ ابتكارُ شيْءٍ جديدٍ، فتكونُ "الاستعارةُ" مُتجاوِزةً بيانَ الكَشْفِ إلَى بيانِ الخلقِ والابتكارِ والإبداعِ.

****

[الخصائص. تأليف أبي الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت: ٣٩٢هـ) تحقيق : محمد على النجار. نشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.(ط:٤) ج:٢ ص:١٦٤-١٦٥]

ما قاله ابن جني يظهر لنا في غير قليلٍ من الكلمات وعلاقة ترتيب حروف الكلمة بخصائص الحروف الصوتية ، كما ذكر في كلمة" بحث" وكما يُمكنك أن تراه في كلمة : "غرق" ونحو ذلك . نعم لا يطرد لنا العلم بذلك في كلّ كلمة، لا لأن ذلك غير موجود فيها بل لأنّنا لا نعلمه ، فقد يكون الشيْءُ موجودًا ، ونحنُ لا نعلمه ، فلا نقول: "لا يوجد" بلْ نقول :" إنا لا نجده" ننسبُ الأمر إلينا لضعف علمنا.

وما ذهب إليه عبد القاهر من أن ترتيب الحروف في الكلمة ليس وفق ضابط أو حكمة، هو قول فيه نظر، يقول الإمام"« "نظْم الحروفِ " هو تَواليها في النطق، وليس نظمُها بمقتضى عن معنى ، ولا الناظمُ لها بمُقْتَفٍ في ذلك رَسْماً مِنَ العقلِ اقتضَى أَنْ يَتَحرَّى في نظمِهِ لها ما تَحرَّاه. فلو أَنَّ واضع اللُّغةَ كان قد قال "ربضَ" مكان "ضرَبَ"، لما كَانَ في ذلك ما يؤدي إلى فَسَاد.

وأما "نظمُ الكَلِم" فليس الأمر فيه كذلك، لأنك تقتفي في نظمِها آثارَ المعاني، وتُرتِّبها على حسبِ ترتب المعاني في النفس . فهو إذن نظمٌ يعتبرُ فيه حالُ المنظوم بعضهُ معَ بعضٍ، وليسَ هو "النَّظم" الذي معناهُ ضمُّ الشيء إلى الشَّيْءِ كيف جاء واتفق» [دلائل الإعجاز. تعليق: شاكر. ص: ٤٩/ فقرة: ٤٠]

لو أن عبد القاهر قال : إن ترتيب حروف الكلمة ليس أمره إلى المتكلم ،وإنما أمره إلى واضع اللغة أي أن ما فيه من بلاغة هي بلاغة لسان، بخلاف بلاغة ترتيب الكلم في الجملة ، فأمرها إلى الإنسان المبين ، فهي بلاغة إنسان - لو قال ذلك لكان أسلم وأقرب

ويُؤكدُ "الرُّمانيّ" أنَّ استعمالَ "الاستعارة" يكونُ ضرورةً لا سبيلَ للمتكلم أن يرغبَ عنها إلى غيرها ، لأنَّ« **كُلَّ استعارةٍ حَسَنَةٍ ... تُوجِبُ بَلاغةَ بيانٍ لا تنوبُ مَنابَه الحقيقةُ ، وذلك أنَّه لو كان تقومُ مقامَه الحقيقةُ ، كانتْ أولَى به ، ولَم تجز الاستعارةُ.** »

"الاستعارةُ" قائمةٌ بأمرٍ ليس للحقيقة - أيْ إقرار الكلم على معانيها الموضوعة إزاءها في أصلِ اللغة - سبيلٌ إليه ، ولو كان لكانت الحقيقة أولى ؛ لأنَّه لا يُلجأُ إلى نقلِ الكلمةِ عن معناها الوضعِي إلى غيرِه إلَّا لضرورةِ اقتضت ذلك ، فكان اللجوء إليها نزولًا على مقتضى ذلك، وهذا ما أكسبها حسنها،وفاعليتها ، ومركزيتها فيما قامتْ فيه.

وهذا يعني أن "الرّمّانيّ" يذهب إلى أن العدولَ عن الأصلِ ضرورة بيانية وأن المتكلم حين يعدلُ عن الأصل " الحقيقة" إنّما يعدل نزولًا على مقتضَى الحالِ ، وهذا النّزول لا يكون إلّا على قدر الحاجة ، ومن هنا ذُمّ كلّ عدولٍ عن الأصلِ لم يكن وليدَ اقتضاء الحالِ . وهذا يؤكِّدُ مسؤولية القائم لمدارسةِ الأساليب البلاغية ذا اعتناءٍ بتبْيين المقتضِي في مبدءِ الأمر، ثم تَبيين مطابقة مقدار العدول للاقتضاء .

[المحور الخامس بيان الحقيقة التي تكون لها وتنقل عنها]

لمَّا ذهب "الرُّمانيّ" إلى أن "الاستعارة" على أنّها نقلُ المستعار مما وضع له" المعنى الحقيق" إلى غير ما لَمْ يُوضع له. ذهب هنا إلَى أن لكلّ "استعارة" حقيقةً تنتقلُ عنها. يقُول : « **وكلّ استعارةٍ ، فلا بُدَّ لها من حقيقةٍ ، وهِي أصلُ الدَّلالةِ علَى المُعنَى فِي اللّغة ، كقولِ "امرْئ القيس" في صفةِ الفرسِ: " قَيْد الأوابِدِ " والحقيقةُ فيه: "مانع الأوابد" ، وقيْد الأوابِدِ أبلغُ وأحسنُ. كقولك: "ميزان القياس" ، حقيقته :"تعديل القياس" " والاستعارة فيه أبلغُ وأحسنُ. فكلُّ استعارةٍ لا بُدَّ لَها مِن حقيقةٍ ، وَلا بُدّ مِن بيانٍ لا يُفهَمُ بالحقيقةِ»**

الرُّمّانيّ معنِيٌّ بإبراز ما بيْن أصل المعنى قائمًا في ما ليس باستعارة، والمعنى قائمًا في الاستعارة. يضع لك المعنيين بين عينيك، لتبصر ما بين الحالَيْن لترى فعل"الاستعارة" في المعنى، فيترتبُ على ذلك ما تفعلُ فيك. ولذلك يقُول«أبلغ»و«أحسن» . قوله «أبلغ» يشيرُ إلى أثر "الاستعارة" في المعنى.

وقوله "أبلغ" من " المبالغة" لا من "البلاغة" لأنّ البلاغة من المطابقة، لا من المبالغة، فقد لا يقتضي المقام مبالغة، فلا تكون المبالغة التي تحققها الاستعارة من البلاغة في شيْءٍ ، فليس كلُّ مبالغة بلاغة، وكلُّ مطابقةٍ بلاغةٌ ،وليس كلُّ مطابقة مبالغة، وليس كلّ مبالغة مطابقة.

فإذا سمعت أهل العلم يقولون : "قوله كذا أبلغُ من قوله كذا" فأنّهم لا يريدون أنَّه أدخل في البلاغة، التي هي المطابقة لمقتضى الحال بل يريدون أنّه أدخل في" المبالغة" .

وقوله «أحسن» يشيرُ إلى أثر "الاستعارة" في متلقيها في سياقها. وهذا يلفتك إلى مسؤوليتك إزاء استبصار الأساليب في المعاني من جهة ، وأثرها في متلقيها وأنت ممثلهم . أي أثرها فيك.

وطريقُ إدراكك أثرها في المعاني أن تناظرالمعنى خارجها، بالمعنى قائمًا فيهأ ، وطريقُ إدراكك أثرها في المتلقي أن تناظر حالك أنت قبل تلقي الاستعارة ، وأثرها فيك بعد أن تلقيتها، إن كنت أرضًا نقية تحسن تلقّي "الغيْث" الصّفِيَّ، ولم تكُ أرضًا سَبخة. إيْ إذا كنت أهلًا للتلقّي . والله - تعالى - فيما

أحسب سيسألُ كلًا منّا : لِمَ لَمْ تهيّئ نفسَك لِتكونَ أهلًا للتلقّي. ذلِك من الفرائض التي يغفُل عنها كثيرٌ من النّاس.

قلتُ :إنَّ الرُّمَّانِيّ مَعنِيٌّ بذلك ، وهذا أمرٌ بالغ الأهمية يُحسبُ للرُّمَّانِيّ ، ويذكر له، ويحمد عليه، ويقتدى به ، وظَنّي أنَّ الله – تعالى- سيحزيه الحسنى إذْ علَّمنا ذلك. نحسِبُه كذلك والله تعالى حسيبه ، وكفيله .

يقُول شيْخنا ﷺ :« "الاستعارة" الصّائبةُ عند الرمانيّ نفحةٌ يبعثها الأديبُ والشّاعرُ ، فيجمعُ بِها العَصِيَّ من السّةانحِ والبوارحِ ،والأسرار والعوازبِ ،ولا تجتمعُ هذه ،وإنْ لُجَّ في طلبِها إلّا بِذلِك الأسلوب.

وهذا الذي قلتُهُ قليلٌ ممّا تجده تحتَ لفظِ"أبي الحَسن" حين يقُول:«**فكلّ استعارةٍ لابدَّ لها من حقيقةٍ ،ولا بُدَّ لها من بيان لا يفهم بالحقيقةِ**»

تأملْ قَولَه" **ولا بُدَّ لها من بيان لا يفهم بالحقيقةِ**" وانظر إلى استعمال كلمةِ :«ولا بدّ»

وقدْ يقعُ في وهم من يتسرّعُ في قراءةِ هذا النّصِّ أنّ قَولَه: " **لابدَّ لها من حقيقةٍ** " يتدافعُ مع قوله :"**لا بُدَّ لَها مِن بيانٍ لا يُفهَم بالحَقِيقَةِ**".

والحقيقة أنَّ المراد بالبيان ما يشمل ما حولَ الحقيقةِ من الأخوالِ والهواجس التي أشرنا إليْها ،وهي التي يعرَى عنْها الكلامُ حين ترجعُ بالمعنى إلى صُورتِه التي تُعبرُ عنها الحقيقةُ ، فقولُ الشاعرِ:«وحططتُ عن ظهر الصِّبا رَحلي حقي» حقيقته أنّه ترك الغَيّض ،وما يدعو إليْه الصِّبا ،ورجعَ إلى رشَادهِ ،وبعد ذلك تبقَى في لفظِ الشَّاعرِ صُبابات حوابس هي لبّ الشعرِ وجوهر بلاغته.

وهذا هو مراد أبي الحسنِ بقولِه " بيان لا يفهم بالحقيقة"([١٢])

---

[١٢]) الإعداز البلاغي لشيخنا. ص:١٢٩-١٢٠